

التحريف والتساؤل حول حقيقة نصّ التوراة

كانت تهمة التحريف التّهمة الأساسية التي ركّز عليها ابن هشام في عرضه للجدل بين المسلمين واليهود، وذلك في كثرة الروايات والأحاديث والآيات القرآنية التي ذكرها .

ورأينا كيف أن تهمة التحريف أول ما برزت في هذا الإستغراب الكبير للرسول من موقف اليهود الراض لنبوته وبشكل مثير للفكر، خاصة وقد اعتقد أنهم سيكونون أول من سيتقبّل دعوته ويؤازره . لما اعتقد من تبشير التوراة به، ولما ورد من قصص على ألسنتهم كلها تبشّر بظهور النبي .

وكما قال بروكلمان " فإن معارضة اليهود لتعاليمه حملته على أن يستنتج أنهم قد ضلّوا عن طريق الإيمان الصحيح، وأنهم قد حرّفوا الكتاب المقدس الذي اعتقد هو نفسه بأنه منزل من عند الله " (٥٤) .

وهذه التهمة ظلّت تلاحق اليهود، والكثير من العلماء الذين شاركوا في الجدل الديني وجّهوا هذه التهمة لليهود، وكان أبرز هؤلاء ابن حزم في كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " حيث اجتهد في العديد من الفصول إثبات أن التوراة ليست نصّاً إلهياً، وإنما هي من وضع إنسان قصد كتابتها على ما هي عليه، ويقول " إن التوراة لم تكن من أول دولة اليهود إلى انقضائها إلاّ

عند الهاروني الكوهن الأكبر وحده في الهيكل فقط وأما ملوك
الأسباط العشرة فلم يكن فيهم مؤمن قط وأن نبوخذ نصر قد أسر
آخر ملوك اليهود متينا بن يوشيا الذي حكم إحدى عشرة سنة وأن
نبوخذ نصر هدم البيت والمدينة واستأصل جميع بني إسرائيل
وأخلى البلد منهم وحملهم مسبيين إلى بابل " (٥٥) . ويتابع ابن
حزم قوله في إنكار حقيقة النص التوراتي بقوله " إن عزرا الوراق
الهاروني هو الذي أملاها عليهم وأنهم أقرّوا أنه وجدها عندهم
وفيها خلل كثير فأصلحه " (٥٦) . ويقول " إن كتابة عزرا للتوراة
كان بعد أزيد من سبعين سنة من خراب بيت المقدس " (٥٧) . ولكنه
يقول : " إن كتبهم تدلّ على أن عزرا لم يكتبها لهم ويصلحها إلا
بعد نحو أربعين عاماً من رجوعهم إلى البيت بعد السبعين عاماً التي
كانوا فيها خالين ولم يكن فيهم حيثئذ نبي " (٥٨) . ويقول " ومن
ذلك الوقت انتشرت التوراة ونسخت وظهرت ظهوراً ضعيفاً
أيضاً " (٥٩) . ويقول " أنه بعد مائتين من السنين وبعد تولي قوم من
بني هارون أمرهم وانتشرت نسخ التوراة التي بأيديهم اليوم
وأحدث لهم أحبارهم صلوات لم تكن عندهم جعلوها بدلاً من
القرايين وعملوا لهم ديناً جديداً ورتّبوا لهم الكنائس في كل
قرية " (٦٠) .

وبعد الكلام الموسّع والمفصّل يصل ابن حزم إلى اقتناع
ونتيجة مفادها " أن كتاب التوراة مبدلّ مكذوب موضوع ودين

معمول خلاف الدين الذي يُقرّون أن موسى أتاهاهم به . (٦١) .
كذلك يذكر ابن حزم أن التوراة التي ترجمها السبعون شيخاً
لبطليموس الملك بعد ظهور التوراة وفشوها كانت مخالفة للتي
كتبها لهم عزرا الوراق " (٦٢) . وكما فعل ابن هشام في السيرة
النبوية ، فعل ابن حزم ، حيث استشهد بالعديد من الآيات القرآنية
التي تؤكد تحريف اليهود للتوراة (٦٣) ، وبأن التوراة الحقيقية هي
التي قصدها الرب في كتابه والتي آمن بها محمد وكل الأنبياء .
ويدل كلام ابن حزم الموسع ، والذي يشغل حيزاً كبيراً من
كتابه ويتوزع على عدة فصول ويثبته بذكر العديد من المصادر ، على
سعة اطلاعه ومعرفته العميقة لما تحويه الكتب المقدسة وما يتعلق
بها ، وعلى قدرته على الإلمام بالموضوع ومناقشته بهذا الأسلوب
المنطقي . لكن هذا كله لا يخفي ما ظهر من تحامل ابن حزم على
اليهود ، وما قصده من إثبات التهم التي قررها من البداية في اليهود
خاصة تهمة التحريف وتبديل الكتاب المقدس ، وتهمة الكفر
والإبتعاد عن سبيل الرب وعقاب الرب لهم على ذلك والتأكيد
على صدق نبوة محمد ، وأن موقف اليهود الراض للنبوة لم يكن
إلاّ موقفاً مكابراً رافضاً الاعتراف بالحقيقة الربانية والتي أقرت بها
الكتب المقدسة والتوراة بشكل خاص .

وقد ظلّ كتاب ابن حزم هذا وغيره من الكتب التي تناولت
اليهود والنصارى مجال اهتمام وبحث وتعليق المهتمين بالموضوع

على مدار مئات السنين ، لما اتّسمت به هذه المؤلفات من العمق
والشمولية والمعرفة بأدقّ المعلومات والقدرة على الوقوف عليها
ومناقشتها .